

لغة الجسد في القرآن الكريم

د. عمر عبد الهادي عتيق*

تاريخ وصول البحث: ٢٠٠٩/١٠/٤م

تاريخ قبول البحث: ٢٠١١/٢/١٧م

ملخص

يرصد البحث شبكة العلاقات الدلالية بين الحركات الجسمية الظاهرة ومعناها اللغوي في النص القرآني، ويفيد البحث من التراث اللغوي والبلاغي لبيان العلاقة بين لغة الجسد واللغة المنطوقة. ويوظف البحث حزمة من العلوم والنظريات، نحو علم النفس الاجتماعي وعلم التشريح والأعصاب وعلم الفراسة وعلم العلامات (السيمولوجيا) وسيكولوجية اللغة والبنية المعجمية والنظرية السياقية.

Abstract

The research monitors the net of the indicative relations between the outstanding body movement and its linguistic meaning in the Holy Qur'an. The research benefits the linguistic and rhetorical heritage to state the relation between the body language and the spoken language. The research employs a bundle of theories towards social psychology, anatomy, neurology, physiognomy and lexical, theoretical and contextual structure.

تمهيد:

لا يخلو التراث اللغوي والبلاغي من العلائق بين اللغة المنطوقة ولغة الجسد، فقد نص ابن جني على العلاقة بين الدلالة والحركة الجسدية، وذلك في سياق حديثه عن أثر التنغيم في اختلاف الدلالة في قوله ((تقول: سألناه فوجدناه إنساناً! وتمكن الصوت بإنسان وتقخمه، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنساناً سمحاً أو جواداً أو نحو ذلك. وكذلك إن نمتته ووصفته بالضيق قلت: سألناه وكان إنساناً! وتزوي وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك: إنساناً لثيماً أو لحزاً أو مبخلأ أو نحو ذلك))^(١) ولا يخفى أن ابن جني يكشف عن أواصر القربى بين اختلاف الدلالة بوساطة التنغيم الصوتي، واختلاف الدلالة بوساطة التعبير الجسدي وبخاصة في قوله: ((وتزوي وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك: إنساناً لثيماً أو لحزاً أو مبخلأ أو نحو ذلك))، واستئناساً بهذه الأواصر والعلائق يمكننا طرح جسارة اصطلاحية بالقول: إن التعبير الجسدي هو تنغيم جسدي أو فسيولوجي وبخاصة حينما يؤدي عضو واحد من أعضاء الجسم

* أستاذ مساعد، جامعة القدس المفتوحة.

دلالات مختلفة، كالعين والشفتين والوجه والجبين واليدين وغيرهما، وقد حرص البحث على تبيان في هذا الأمر. ولا تقتصر العلائق بين لغة الجسد واللغة المنطوقة على التنغيم من حيث تعدد الدلالة كما سلف بيانه، إذ يمكننا رصد أواصر قبرى بين لغة الجسد من جهة والمشارك اللفظي والترادف من جهة أخرى إذ ((يحدث أن يقع تحت الكلمة معنيان أو أزيد لتغدو مما ينتسب إلى المشترك اللفظي كالعين ... والحركة الجسدية قد يقع تحتها معنيان أو أزيد فتتنسب إلى ظاهرة المشترك الحركي ... وكما أن المعنى الواحد قد يعتوره كلمتان، بل كلمات، لينشأ من بعد ذلك الترادف، فإن طائفة من الحركات قد تلتقي على معنى واحد لينشأ بعد هذا الترادف الحركي))^(٢).

أما العلاقة بين لغة الجسد والبلاغة فقد أسهب الجاحظ في الحديث عنها في البيان والتبيين نحو قوله: ((والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه. وما أكثر ما تتوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط ... وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير، ومعونة حاضرة، في

أمور يسترتها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس. ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص ولجهلوا هذا الباب البتة^(٣) ويذهب الجاحظ في موضع آخر إلى أن الإشارة أبلغ من الصوت في تعليقه على قول الشاعر:

وعين الفتى تبدي الذي في ضميره

وتعرف بالنجوى الحديث المعصا

وقول آخر:

والعين تنطق والأفواه صامتة

حتى ترى من ضمير القلب تبياناً

وذلك في قوله: ((ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت. فهذا أيضاً باب نتقدم فيه الإشارة الصوت^(٤)، ويضيف الجاحظ إلى مزية الإشارة والحركة الجسدية بقوله: ((رب كناية تربي على إفصاح، ولحظ يدل على ضمير، وإن كان ذلك الضمير بعيد الغاية^(٥))).

ويفتح الجاحظ باب الاختيار للمتكلم ليختار القناة أو الوسيلة التعبيرية (اللغة المنطوقة أو الإشارة والحركة الجسدية) شريطة أن تؤدي الوسيلة الفهم والإفهام؛ ((لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت فيه الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع^(٦))). ويستأنس البحث برؤى بعض العلماء في علم الفراسة الذي يعني ((الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق الباطنة^(٧))). ويرى فخر الدين الرازي ((أن الإنسان يحصل له حال ثوران الغضب فيه شكل مخصوص، وهيئة مخصوصة، وحال اشتغاله بالوقوع (الجماع) شكل آخر، وهيئة أخرى، وحال استيلاء الخوف عليه شكل ثالث وهيئة ثالثة^(٨))).

أهمية الدراسة:

لا يخفى أن التعبير الجسدي يختزل بعداً دلاليًا ويضمّر بعداً نفسيًا، وهما بعدان يتجاوزان الدلالة المعجمية السطحية لألفاظ التعبير الجسدي، إذ إن حركة واحدة من عضو معين - كحركة العين مثلاً - تعبر عن

عناقيد دلالية وتكشف عن بنية نفسية، وذلك بخلاف التعبير اللفظي الذي تقتصر دلالاته على المعنى المعجمي والسياقي. إن التعبير الجسدي هو تنغيم جسدي أو فيسيولوجي وبخاصة حينما يؤدي عضو واحد من أعضاء الجسم دلالات مختلفة، كالعين والشفنتين والوجه والجبين واليدين وغيرهما.

أسئلة الدراسة:

- ١ كيف يتحقق التكامل الدلالي بين اللغة المنطوقة ولغة الجسد؟
- ٢ ما العلاقة بين التنغيم اللغوي والتنغيم الجسدي؟
- ٣ ما دور المتكلم والمتلقي في تحقيق دلالات التعبير الجسدي؟
- ٤ هل يقتصر التعبير بوساطة عضو واحد على دلالة واحدة؟
- ٥ كيف يتحقق التنوع الدلالي بتنوع الحركة الجسدية الواحدة؟
- ٦ هل تتوافق دلالات التعبير الجسدي مع تفسير علماء الطب؟

أهداف الدراسة:

- ١ رصد العلاقة بين التنغيم اللغوي والتنغيم الجسدي من حيث التغيرات الدلالية.
- ٢ ربط دلالة التعبير الجسدي بالمتكلم والمتلقي.
- ٣ تحليل شبكة العلاقات الدلالية للعيون.
- ٤ الكشف عن العلاقة بين ملامح الوجه والبنية النفسية للمتكلم.
- ٥ ربط التعبير الحركي لليدين والصدر بالانفعالات النفسية والعصبية.

مصطلحات الدراسة:

- الاتصال: عملية تفاعل بين طرفين حول فكرة أو رسالة، ويتخذ شكلين؛ اتصال لفظي محدد باللغة، واتصال غير لفظي ويشمل الحركات والإشارات

وينبغي أن نفرق بين اللغة والتخاطب، فاللغة أصوات يعبر بها الإنسان عن حاجاته، أما التخاطب أو التواصل فيشمل اللغة والحركات والإشارات والرموز، ويمكن القول إن التخاطب هو علم العلامات (سيمياء)، واللغة فرع من علم السيمياء وفي ((دراسة اللغة يكون التركيز منصبا عليها باعتبارها أحد أشكال التخاطب، بينما يكون الانتباه موجها في دراسة التخاطب إلى كل العناصر الداخلة في عملية التخاطب وهي المرسل (وخصاله) والمستقبل (وخصاله أيضا) والرسالة والمضمون الذي تحمله والوسيلة التي قد تكون اللغة فيسمى التخاطب لفظيا، أو الإشارات والحركات فيسمى التخاطب غير لفظي، وأخيرا السياق الذي يحدث فيه التخاطب))^(٩).

ومن الحركات الجسدية ما هو مكتسب بالمحاكاة والتقليد، نحو الحركات التي تعبر عن التمرجات النفسية وهي البهجة والحزن والشمئزاز والخوف والغضب والدهشة، وهي التي تسمى الانفعالات الستة العالمية، ومنها ما هو مكتسب بالدربة والمراس كالتحايا العسكرية والغمز بالعين وإشارات الصم^(١٠).

واللافت أن التفاعل الفسيولوجي أثناء التواصل اللغوي يشمل المتكلم والمتلقي وذلك أن ((المستمع يميل إلى أن ينسق جسمه وأن يغير وضعه تبعا للمتكلم كأنه صورة مرآة له، وهكذا يبدو أن المستمع يتابع المتكلم كما لو كان عليه أن يتخذ دور هذا المتكلم ليفهم بصورة أكثر شمولا، ويتوقف المستمع عن المتابعة عندما يكون قد استمع بما فيه الكفاية ويريد أن يتكلم هو نفسه، وتكون حركاته إشارة للمتكلم كي يكف عن الكلام))^(١١) ولا تقتصر آثار التفاعلات الوجدانية على الإشارات والحركات الجسدية، إذ إن الحالة النفسية تؤثر على ملامح الأصوات المنطوقة، ففي حالة الغضب يصبح الصوت غليظا ثقيلًا بسبب حرارة الباطن التي تعمل على توسيع القصبة الهوائية و مجرى أو منفذ الصوت، وفي حالة الخوف يصبح الصوت حادا خفيفا بسبب انحصار الحرارة في الباطن وعدم تأثيرها على مجرى

والإيماءات والرموز وتنوعات المظهر الخارجي كالملايس مثلا.

- **اللغة:** أصوات منطوقة أو مكتوبة وفق نظام لغوي يفرضي إلى دلالات تتفق عليها الجماعة الناطقة بها
- **التنغيم:** تغيرات أو تموجات صوتية وفق أحوال المتكلم تؤدي إلى اختلافات دلالية.
- **السلوك الإنساني:** الأفعال والاستجابات التي تصدر عن الإنسان سواء كانت ظاهرة كالحركات الجسدية أو مخفية كالتفكير والتذكر.
- **علم المعاني:** هو العلم الذي يبحث في تراكيب الكلام والأساليب التي تتفق مع المقام.

دراسات سابقة:

من الدراسات التي تتصل بموضوع البحث دراسة بعنوان لغة الجسد في القرآن الكريم، وهي أطروحة ماجستير أعدها خيرى الجنيدى (كلية الشريعة في الجامعة الأردنية)، ولغة الجسد في القرآن الكريم (أطروحة ماجستير)، إعداد: جميل ربيعة، إشراف: الدكتور: عودة عبدالله، (جامعة النجاح الوطنية، فلسطين) ولغة الجسم في السنة النبوية - دراسة موضوعية (أطروحة ماجستير)، إعداد: محمد شريف الخطيب، إشراف: الأستاذ الدكتور: شرف القضاة، الجامعة الأردنية (٢٠٠٦) ومن الدراسات ذات العلاقة كتاب الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي للدكتور إبراهيم أبو عرقوب، (دار مجدلاوي، عمان، ٢٠٠٥). والبيان بلا لسان - دراسة في لغة الجسد - للدكتور مهدي عرار (الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٧) ومن الدراسات المترجمة كتاب لغة الحركات لبأكو نتالي، ترجمة: سمير شيخاني (دار الجليل، بيروت، ط ١).

ويضيف بحثنا إلى ما تقدم الربط بين حزمة من العلوم والنظريات، نحو علم النفس الاجتماعي وعلم التشريح والأعصاب وعلم الفراسة وعلم العلامات (السيمولوجيا) من جهة، ودلالات لغة الجسد من جهة أخرى.

الأصوات^(١٢). ولا يخفى أن الشعور بالخوف يؤدي إلى ارتجاف أو ارتعاش كثير من العضلات ولهذا فمن المألوف أن يكون الصوت مرتجفاً أجش بسبب جفاف الفم وفشل أداء الغدد اللعابية^(١٣).

ويرى جورجى زيدان أن ((لكل عاطفة من عواطف الإنسان تأثيراً خاصاً في ملامح وجهه، فإذا غضب أحدنا أو حزن أو فرح أو اهتم ظهر أثر لكل من هذه العواطف على وجهه، وعندنا علامة للغضب، وأخرى للفرح، وأخرى للاهتمام، ومعنى هذا التأثير طبياً تغيير يحدث في عضلات الوجه تحت الجلد فتتكشف أو تتقبض أو تتبسط تبعاً للتأثير الذي أصابها فتتغير ملامح الوجه))^(١٤).

وتتخذ لغة الجسد أشكالاً تعبيرية شتى تؤدي وظائف تواصلية فالإشارة بوساطة كف اليد تدل على دعوة المخاطب بالتوقف أو المجيء، وضم السبابة والإبهام على شكل دائرة مع مد باقي الأصابع يدل على التهديد، وتعبير عضلات الوجه عن حزمة من الدلالات والعواطف كالإعجاب والتقدير والإشفاق والتحقير وغيرها، وأهم ما يميز الإشارات الاجتماعية أنها لغة جسدية يراد منها الإفهام أو البيان أو الدلالة على معنى بلا ألفاظ^(١٥). وكذلك يدل إغلاق العينين أو تحويل النظرات عن المخاطب على الرفض والسخط أو الضيق والاشمئزاز، وقد يدل اتساع العينين على القبول أو الدهشة^(١٦). وباختصار فإن ((أي شعور يكون منبهاً لأداء عضلي))^(١٧).

وتتقاطع لغة الجسد مع التمثيل المسرحي الصامت الذي يعرف بـ الماييم الذي يختص بالعروض المسرحية الجادة بوساطة الحركات المخصوصة، وهناك نوع يُعرف بالباننوتو ماييم الذي يختص بالعروض المسرحية الكوميديّة بوساطة حركات واسعة غير مقيدة^(١٨).

شبكة العلاقات الدلالية للعيون:

تشيع عبارة (لغة العيون)، ويتباهى كثير من الناس بمهارتهم في قراءة أو تفسير لغة العيون، ونعمد

إلى إبعاد نظراتنا عن الآخرين خشية معرفة ما نكنه في أعماقنا، وما نشعر به في وجداننا، إذ إن العين مرآة القلب والوجدان، وهي ((باب القلب، فما كان في القلب ظهر في العين))^(١٩).

وقد تعبّر العين عما تعجز عنه اللغة، كما أننا نستطيع الوصول إلى نتائج دقيقة في تحليلنا للخطاب اللغوي المكتوب والمنطوق مهما كانت درجة ترميزه أو تفسيره وذلك بوساطة تشريح البنية اللغوية العميقة، ولكن قدراتنا ومهاراتنا تضعف في كثير من المواقف أمام البنية الدلالية العميقة للغة العيون. وتشكل النظرات وتجليات العين إشعاعاً دلالياً يصعب حصره في قالب لغوي أو دلالي، وهي ((كثير الأعضاء تأثراً وتأثيراً، فهي تتأثر بما تقرأه في الآخرين، وتؤثر فيهم حين تقرأها عيونهم، تتأثر فتخلف في ذات صاحبها الحزن أو السرور، وتؤثر، فتتهيج ما كان دفيناً في الآخرين، بل لها قدرة قوية على اختراقهم لتصل إلى مكونات نفوسهم؛ إضافة إلى أنها هي نفسها تكشف عما في نفس صاحبها من المعاني والدلالات الكثيرة))^(٢٠).

وتبقى النظرات عصية على الاختزال في نص لغوي. ويصف ابن حزم الثراء الدلالي للعين بقوله: ((فالإشارة بمؤخر العين الواحدة نهي عن الأمر وتقديرها إعلام بالقبول، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف، وكسر نظرها آية الفرج، والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه، والإشارة بمؤخر العين كلتاهما سؤال، وقلب الحدقة من وسط العين إلى المآق بسرعة شاهد المنع، وترعيد الحدقتين من وسط العين نهي عام))^(٢١)، وقد رصد اللغويون التنوع الدلالي للنظرات فربطوا بين اختلاف الدلالة وتنوع المسمى وفق حركة العين وزاوية النظرة، فإذا نظر الإنسان بمجامع عينه قيل: رمقه، ومن جانب أذنه، قيل: لحظه، وإذا نظر بعجلة، قيل: لمحّه، وإذا نظر بحدّة، قيل: حدّجه ... الخ^(٢٢).

+ تبادل النظرات:

استئناسا بما سلف نتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا

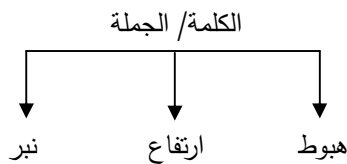
بل إن كل ما في العين يتحرك وبشكل مختلف؛ الجفون تختلج، والأهداب ترتعش والمقلة تدور، والحوارج تعلو وتهبط. . . وكثير من هذه الحركات الظاهرة لها أثر ودلالة^(٢٦).

يتجلى مما تقدم أن دلالة النظرات مرتبطة بالحركة التعبيرية للعين، فإذا كانت الحركة غمزا فإن الدلالة سخرية واستهزاء، وإذا كانت جحوظا فالدلالة غيظ وغضب، وإذا كانت اتساعا وضيقا في حدقة العين، واضطرابا في زاوية النظر فالدلالة تشاور واتفاق على الهرب من المكان الذي يتلى فيه القرآن الكريم. وقيل ((رب إشارة أبلغ من عبارة))^(٢٧).

ونجد نصوصا في علم النفس الاجتماعي تعزز ما تقدم، إذ ((إن اتجاه نظرة شخص ما يمكن أن يكون حدثا اجتماعيا، وعلى الرغم أن اتجاه النظرة يبدو أمرا بسيطا إلا أنه يقوم بدور هام في سلوك الأفراد فيما بينهم))^(٢٨).

ومن المفيد أن نوظف اللغة التعبيرية أو الإشارية للنظرات من أجل رصد مزيد من العلاقات بين التعبير الحركي (التنغيم الفسيولوجي) والتنغيم اللغوي وذلك على النحو الآتي:

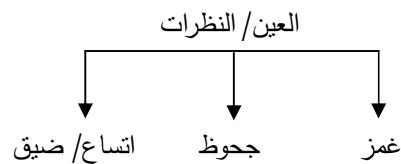
التنغيم اللغوي (الصوتي)



وتبقى دلالات النظر عصية على الفهم لأنها تحتاج إلى مشاهدة ومعاناة، ولذلك شبه الخطاب القرآني نظرات المنافقين وفق سياق الآية بنظرات المغشي عليه من الموت لتبقى نظرات المنافقين في حينها مجسدة في الأذهان، وهي نظرات تحمل في هيئتها ومعانيها قدرا كبيرا من الخوف والجبن؛ لأن القتال قد يفضي إلى موتهم. كما أن التشبيه البليغ هو تأكيد على علاقة المشابهة بين

أَنْزَلَتْ سُورَ قَطَّرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَأَوْنَ أَكْهَنَ أَدَدٍ شُئِبَصَرَ فَوَافٍ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ^(٢٩) النبوة: ١٢٧]. يصور السياق الدلالي للآية موقف المنافقين من نزول القرآن الكريم، ويكشف تبادل النظرات بينهم عن حزمة من المشاعر التي تمر في أعماقهم وتتجلى في نظراتهم، وعن تفكير يدور في أذهانهم ويرتسم في نظراتهم، ويمكننا أن نتصور حالة عيون المنافقين بناء على السياق الدلالي، إذ لا بد أن تقتزن نظراتهم بحركة الجفنين فينجم ما يعرف بالغمز الذي يدل على معنى السخرية والاستهزاء إنكارا للوحي وهو المعنى الذي ذهب إليه الزمخشري^(٣٠)، أو يطرأ جحوظ في العينين للتعبير عن الغيظ والغضب والسخط ((لما في السورة من مخازيهم وبيان قبائحهم))^(٣١) أو أن يطرأ اتساع وضيق في حدقة العين، أو أن تضطرب زاوية النظر ... وكلها حركات تعبر عن مشاعر أو أفكار محددة. وقد تكون نظراتهم لغة إشارية ليتفقوا على الهرب كراهة سماع نزول القرآن الكريم، وبهذا التوجيه يكون السؤال ((هل يَرَأَوْنَ أَكْهَنَ أَدَدٍ)) تعبيرا حركيا لنظرات المنافقين وليس تعبيرا لفظيا كما ذهب الألوسي^(٣٢). وحركات العين ((لا نتخذ لونا رتيبا خفيا كدقات القلب،

التنغيم الفسيولوجي



٢ - النظرات الخائفة:

يصور الخطاب القرآني التعبير البصري للمنافقين الذين يسمعون الآيات التي تحث على الجهاد في قوله تعالى: ((يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ مَّدَّ كُمُوهُ ذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ آيَاتِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مَرِلًا مَوْتًا فَأَوَّلَى لَهُمْ)) [محمد: ٢٠].

نظرات المنافقين ونظرات المغشي عليه.

ولو اعترض المنافقون أو تنمروا من الأمر الرباني الذي يحث على الجهاد لكُشف أمرهم وعُرفت حقيقتهم، لذلك لجؤوا إلى التعبير بأعينهم لإخفاء ما يدور في أذهانهم، فالإنسان يستطيع أن يصمت عن الكلام ليخفي ما في نفسه، وقد يسيطر على حركاته الجسمية في كثير من الأحيان، ولكنه يعجز عن إخفاء نظراته التي تجسد ما يبور في ذهنه ووجدانه، ولهذا يلجأ أناس إلى إشاحة وجوههم وتغطية عيونهم بأيديهم في مواقف معينة لئلا يرى الآخرون ما تعبر عنه عيونهم.

ويتكرر تشبيه نظرات الخوف بمن يُغشى عليه من الموت في قوله تعالى: ﴿إِذْ دَعَاكُمْ فَاذْجَبُوا وَتَارْتَهُمْ نَظَرُوا إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذُهِبَ الْخَوْفُ سَقَوْكُمْ أَلْسِنَةً دِدَادًا تُشْدُّ عَلَى الْخَيْرِ أَوْ لَنْكَ لَمْ يُوْا مُنَافِقَاتٍ لِّلَّهِ عَمَلَهُمْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩].

يصور سياق الآية حال المنافقين في موقفين مختلفين يشكلان ثنائية نفسية سلوكية، الأول: الخوف الذي يتجسد في دوران العين في قوله تعالى: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾، وهو موقف صامت، تقوم العينان بالوظيفة التعبيرية النفسية؛ ولأن دوران العينين يحتمل دلالة مختلفة غير الخوف، نحو: الترقب والحيرة والتدبير والرفض والتشكيك ... الخ فقد جاء تشبيه دوران العين ﴿إِذْ دَعَاكُمْ فَاذْجَبُوا﴾ لتحديد معنى الخوف دون غيره من المعاني الأخرى. ولا يخفى أن الدوران يعني الحركة، فأعينهم ((تدور يمينا وشمالا، وذلك سبيل الجبان ... ويقال للميت إذا شخص بصره: دارت عيناه، ودارت حماليق عينيه))^(٢٩). والثاني: الأمن بعد زوال الخطر والخوف، وهو موقف ناطق يجسده قوله تعالى: ﴿إِذْ دَعَاكُمْ فَاذْجَبُوا سَقَوْكُمْ أَلْسِنَةً دِدَادًا﴾ [الأحزاب: ١٩].

ويمكن أن نستأنس بالبنية المعجمية لمادة (دور) للكشف عن مزيد من التعبيرات النفسية للمنافقين الذين

تدور أعينهم في سياق الآية قلادو أروادو أكالدو ر أن يأخذ في الرأس^(٣٠).

٣ النظرات المختلصة:

في قوله تعالى ﴿وَرَأَاهُمْ ضُفُوفًا عَلَيْهِمْ زُفُوفًا مِنْ الدُّلِّ يَنْظُرُونَ مَطَرًا خَفِيًّا قَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ حِينَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٥]، يتجلى حال الكافرين من خلال عيونهم إذ ((يبتدئ نظره من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي بمسارقة كما ترى المصلوب ينظر إلى السيف، وهكذا ينظر النظر إلى المكاره لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملا عينيه منها كما يفعل في نظره إلى المحاب))^(٣١)، ويبدو أنهم كانوا يطبقون أجفانهم برهة من الزمن خوفا وجزعا ثم يفتحون عيونهم ليعيدوا إطباقها ف((الطرف إطباق الجفن على الجفن والطرف تحريك الجفن في النظر))^(٣٢). ولعل إطباق الجفن في سياق الخوف هو قطع للمشاهد المربعة التي تنقلها شبكة العين إلى الدماغ، وحينما يخف تأثير الدماغ على الحواس يعود الإنسان إلى فتح عينيه، ويلجأ إلى هذا السلوك البصري في حالة التفكير في أمور مربعة أو في حالة سماع أمر يثير الخوف والرعب، ويرى داروين ((أن الأشخاص في أثناء وصفهم لمنظر مروع كثيرا ما يقومون بإغلاق أعينهم بشكل عابر وبشكل قوي، أو يقومون بهز رؤوسهم ... لكي لا يروا أو لكي يبعدوا شيئا بغيضا))^(٣٣).

فإطباق الجفن وفتحها رد فعل لمثير بصري أو ذهني أو سماعي. ومن المألوف أن الإنسان يهرب من المكان الخطير أو المرعب، إذ إن الهرب رد فعل حركي، ولكن الكافرين لا يستطيعون الهروب من العذاب، ولذلك يضطرون للهروب البصري.

٤ نظرات الترقب:

يعدل الخطاب القرآني عن دال النظر حينما يستدعي السياق عدولا نحو قوله تعالى: ﴿تَدُنُّرٌ يَتَقَلَّبُ يَدُهُ فِي السَّمَاءِ لَنْ يَنْتَظِرَ ضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤].

متى حصلت في الوجه فإنه يقوى دلالتها على الأخلاق الباطنة))^(٣٧).

٤. التعجب والدهشة:

في قوله تعالى: ﴿قَبِلَتْ أَمْرَ أَنَّهُ فِيهِ دَرٌ قَصَدَتْ وَجْهَهَا قَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (الذاريات: ٢٩).

لجأت زوج إبراهيم عليه السلام إلى ثلاثة أشكال تعبيرية؛ الأول: تعبير صوتي انفعالي خارج عن السيطرة للتعبير عن الدهشة والتعجب من بشرى الإنجاب وهي عجوز عقيم، ومن المألوف أن يصدر الإنسان أصواتا تعبيراً عن المفاجأة والدهشة، فقد بدأ التعبير عن الانفعال بصوت المفاجأة والدهشة الذي أطلقته إذ إن معنى صَدَرَ صَوْتُ وَصَاحَ أَشَدَّ الصَّيْحِ^(٣٨) وذهب بعض المفسرين في أن الصرة هو صوت (أوه) أو يا ويلتا، ثم لجأت إلى لطم وجهها ببسط يدها أو بأطراف أصابعها^(٣٩)، والثاني: تعبير حركي انفعالي وهو لطم الوجه أو الجبين حينما تعجز اللغة عن التعبير في الموقف الانفعالي، والثالث: تعبير كلامي (قَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)، والتعبير الكلامي هنا ليس انفعالياً في دلالته أو في تنغيمة بل هو كلام إخباري في ظاهره لا يحمل في حناياه شحنات نفسية تتناغم مع الدهشة والاستغراب، وهو أمر يشجع على القول: إن التعبير الصوتي والحركي قد امتص الانفعال والتوتر، ((فهذه الحركة من السواد التي سدت مسد قولنا: فتعجبت منكراً مستهجنة، ومن الكواشف النفسية المنبئة عن حواشي نفس امرأة عجوز بشرت بحمل فولادة))^(٤٠).

ولعل ترتيب الأشكال التعبيرية (الصوت والحركة والكلام) يجسد فطرية التعبير عند الإنسان وفق النظرية الطبيعية التي ترى أن تعبير الإنسان عن حاجاته بدأ بأصوات مبهمة. وتفيد قرائن العطف بين جمل الآية أن التعبيرين الصوتي والحركي متلازمان، وأن التعبير الكلامي جاء مسبوقاً بفواصل زمني وهو الزمن الانفعالي الذي استغرقه الصوت والحركة. وما يعيننا في هذا السياق هو التعبير الحركي الذي يتمثل بلطم الوجه في

يفيد تقلب الوجه في الآية النظر في السماء، ولكن لماذا خلا الخطاب القرآني من دال النظر؟ أرى أن العدول عن التعبير بالنظرات إلى التعبير بتقلب الوجه يعود إلى العناقيد الدلالية التي تجمع بين دوال القلب والوجه والسماء من جهة والسياق الدلالي من جهة أخرى، إذ يتجلى الإعجاز اللغوي في سياق الآية في مجيء الفعل (قَبِلَتْ) دون غيره من البدائل اللغوية الأخرى؛ لأن من معاني مادة (قلب) ما يتوافق مع الدلالة السياقية للآية وهي تحول القبلة من بيت المقدس إلى مكة، إذ إن ((الْقَلْبُ تَحَوَّلَ وَبَدَّلَ الشَّيْءَ عَنْ وَجْهِهِ))^(٤١). كما أن إضافة المصدر (قَبِلَتْ) إلى الوجه يحوي وشائج بين مادة (وجه) والسياق، فالوجه والوجه القبلة، ومن إشرقات الإعجاز اللغوي في هذه الآية مجيء (وجهك) بدلا من (نظرك)؛ لأن من معاني مادة (جه) ما يتعلق بالسماء، نقول: أَجَهَتْ السَّمَاءُ فَهِيَ جُهِيةٌ إِذَا أَصْبَحَتْ^(٤٢).

ولا يقال لمن رفع وجهه إلى السماء مرة واحدة: قلب بصره في السماء، وإنما يقال: قلب إذا داوم النظر في السماء^(٤٣)، وهذا يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نظر إلى السماء غير مرة داعياً راعباً متشوقاً إلى نزول الوحي ليخبره بتحويل القبلة. ولا يخلو دوام النظر إلى أمر ما من تعلق الناظر بما ينظر إليه انطلاقاً من بواعث عاطفية أو فكرية، إذ إن الصورة الذهنية للأمر المحبوب لا تفارق شبكة العين التي تعد مرآة للأفكار والمشاعر.

شبكة العلاقات الدلالية للوجه:

يختزل الوجه دلالات نفسية شتى، تعبر عما يدور في الذهن ويمور في الوجدان، ويكاد الوجه ينطق بوساطة أطراف لونه وتموجاته، وانقباض العضلات واسترخائها، وهو خطاب جسدي معلن يضم خطاباً لغوياً يقضتي متلقياً بصيراً بالتغيرات الفسيولوجية التي تتجلى في قسمات الوجه، ويرى فخر الدين الرازي ((أن الأحوال الظاهرة في الوجه قوية الدلالة على الأخلاق الباطنة؛ فإن للخجالة لونا مخصوصاً في الوجه، وللخوف لونا آخر، وللغضب لونا ثالثاً، وللفرح لونا رابعاً، وهذه الألوان

حالة الاستغراب الشديد، فلماذا يلجأ الإنسان إلى هذا الشكل التعبيري؟ هل هو محاولة لتخفيف احتقان الدم في الوجه أم محاولة للعودة إلى الواقع قبل حدوث الدهشة؟ وبخاصة أننا نشاهد أناسا يُضربون على وجوههم ضربات خفيفة ومتوسطة لإعادتهم إلى وعيهم. ومهما كان التعليل الفسيولوجي لهذا الشكل من التعبير فإن صك الوجه أو لطمه يتضمن خطاباً لغوياً مضمراً للتعبير عن أشد المواقف استغراباً ودهشة.

ومن المفيد أن نستأنس في هذا السياق بتعقيب ابن جني على قول الشاعر:

تقول صكت وجهها بيمينها

أبلي هذا بالرحى المتعاس

((ولو لم ينقل إلينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقوله: وصكت وجهها، لم نعرف به حقيقة تعاضم الأمر لها))^(٤١).

٤ الحيرة والتوتر:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَرَ * ثُمَّ ظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ دَبَّوْاْ اسْتَكْبَرُواْ * فَقَالَ إِنَّ هَذَا لَأُسْحَرِيٌّ ثَرِيٌّ﴾ [المدثر: ٢٤].

يحتوي سياق الآيات ثلاثة أشكال للتعبير الجسدي، وهي النظر وتقطيب الجبين، والمبالغة في تقطيب الجبين، ويكشف تعبير النظر ودلالة تقطيب الجبين في الآيات عن صراع ذهني ناجم عن توتر عصبي وتردد فكري. ولا بد من الاستئناس بالسياق الدلالي للآيات من أجل الكشف عن العلائق الدلالية بين النظر وتقطيب الجبين.

يصور سياق الآيات حيرة الوليد بن المغيرة واقتراءاته على القرآن الكريم والرسول ﷺ، فقد حار في أمر القرآن الكريم، بعد أن استبعد أن يكون القرآن شعراً أو كلام كاهن مما عهدته قريش. وقد شكلت حيرته في حقيقة القرآن صراعاً ذهنياً بين ما سمعه من القرآن وأصناف الكلام المعهودة عند العرب، فلم يجد بينهما توافقاً أو تقارباً... ويواجه مع هذا الصراع الذهني تحدياً

آخر يتمثل بوصف أو إجابة ينتظرها عتاة قومه لما سمعه من القرآن، وقد تجسد الصراع الذهني والتحدي الذي ينتظره في نظراته تجاه قومه، فهي ليست نظرات مألوفة يُراد منها الرؤية البصرية أو البحث عن شخص ما، بل هي نظرات يُراد منها التفرس والتفحص لما يدور في أذهان المجتمعين، أو هي نظرات تهيئة المستمعين لما سيقوله عن القرآن، فمن المألوف أن تكون نظرات الإنسان إلى الآخرين مشبعة بالدلالة التي يضمها المتكلم، و تحوي إحاءات تهدف إلى تفرغ ذهن المستمع استعداداً لسماع الخبر المنتظر، ولا ريب أنها نظرات حادة ثابتة تجسد حدة الصراع الذهني وتتسم مع التحدي الذي ينتظره. ويؤكد علم النفس الاجتماعي أن ((الطرق المميزة التي يستخدم بها الشخص خط نظره أو وجهه للتعبير عن انفعالاته، أو لإرسال معلومات محددة هي طرق مهمة نوعاً ما؛ لأنها تسمح للشخص لأن يكون انطباعاته عن شخصية شخص آخر))^(٤٢).

ويبدو أن التوتر العصبي والتردد الذهني الفكري أقوى من تأثير نظرات الوليد بن المغيرة تجاه قومه فلجأ إلى وسيلة تعبيرية أخرى أو لنقل لغة جسدية أكثر إثارة وتأثيراً على السامع وهي لغة تقطيب الجبين (عَبَسَ)، واستئناساً بالبنية المعجمية لمادة (عَبَسَ) فقد وظف ابن المغيرة ملامح وجهه لإخفاء التوتر والتردد والحيرة، ولوصف ما سمعه من القرآن وصفا ينسجم مع رغبة عتاة قومه، إذ إن معنى عَبَسَ قَطَّبَ ما بين عينيه للعابس الكريه الملقى، الجَهْمُ المُدَيُّوْلُ والتَّعَبُّسُ الثَّجَمُ^(٤٣)، ويبدو أن المستوى التعبيري الجسدي الناجم عن نظراته الحادة الثاقبة وتقطيب جبينه وتجهمه لم يقو على التعبير بما يمور في ذهنه ووجدانه فلجأ إلى تعزيز التعبير الجسدي بزيادة تقطيب الحاجبين وهو ما يفيد لفظ (بسر). ويرتبط هذا التدرج والتنوع في التعبير الجسدي بعلاقة الدماغ بعضلات الوجه إذ إن ((من أسس علم الفرينولوجيا ما يزعمه أصحابه من علاقة

القوى العاقلة بعضلات الوجه فعندهم أن لكل مجموع من مجاميع القوى علاقة خصوصية بعضلة من عضلات الوجه تتأثر بتأثرها فتقبض العضلة أو تتبسط بحسب أحوال تلك القوى من الشدة أو الانفعال أو نحو ذلك^(٤٤).

وهكذا يتجلى لنا أن التعبير الجسدي قد تدرج من النظر الثاقب الحاد إلى تقطيب الجبين إلى المبالغة في تقطيب الجبين، وهو تدرج ينسجم مع آلية الإقناع التي يتوسل بها المنكلم والاستجابة التي يبدئها السامع. وقد اهتم اللغويون بالدلالة التعبيرية لتقطيب الجبين من حيث درجاته واقتارنه بحركة تعبيرية مساندة فقالوا: ((إذا زوى ما بين عينيه فهو قاطب وعابس، فإذا كشر عن أنيابه مع العبوس فهو كالح، فإذا زاد عبوسه فهو باسر ومكفهر^{٤٥}، فإذا كان عبوسه في الهم فهو ساهم، فإذا كان عبوسه من الغيظ وكان مع ذلك منتفخا فهو مبرطم))^(٤٥).

العناقيد الدلالية في لغة الكفين:

تختزل الكفان عناقيد دلالية تتوزع على مساحة وجدانية، ومن الصعب ربط الحركة الواحدة للكفين أو للأصابع بدلالة واحدة، فقد تؤدي الحركة الواحدة للكفين من حيث القبض والبسط وعض الأنامل وغيرها دلالات شتى يحددها السياق أو المقام، ولعل الاتساع الدلالي للغة الكفين يرتبط بالعلائق العصبية بين الكفين والدماغ، وذلك أن ((اليدين هي أداة امتداد الدماغ، والجزء الوحيد في الجسم البشري الذي هودوما تحت العينين، والرابطة المميزة مع العالم الخارجي))^(٤٦).

لنتأمل قوله تعالى: ﴿لَم يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ سُلُوكُ الْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ قُلُوبُهُمْ وَ قَالُوا إِنَّا نَحْنُ بَاطِلٌ سَلَّمُوا بِأَوْثَانٍ لَنَا لَقِيَ شَكٌّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَىٰ يُهْرَبِ﴾ [إبراهيم: ٩].

حار الزمخشري في توجيه التعبير الحركي في قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾، فذهب إلى أنهم ((عضوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل ... أو ضحكا واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على

فيه، أو أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم ﴿إِنَّا نَحْنُ بَاطِلٌ سَلَّمُوا بِأَوْثَانٍ لَنَا لَقِيَ شَكٌّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَىٰ يُهْرَبِ﴾ أي: هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره إقناطاً لهم من التصديق. . . وهذا قول قوي، أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: أطبقوا أفواهكم واسكتوا، أو ردوها في أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكوت، أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذروهم يتكلمون))^(٤٧).

لا يخفى أن حيرة الزمخشري في توجيه التعبير الحركي يعود إلى غياب السياق البصري لحركة الأيدي تجاه الأفواه، وغياب السياق النفسي للكفار المخاطبين، كما لا يخفى أن دلالة التنغيم الفسيولوجي تقتضي مشهدا بصريا لحركة الأيدي، وإدراكا لحالة المخاطبين.

إن الحركة التعبيرية للأيدي اتجاه الأفواه قادت الزمخشري إلى حزمة من الدلالات وهي الغيظ والضجر والضحك والاستهزاء، ويضيف الشوكاني إليها دلالة التعجب^(٤٨) وكلها دلالات محتملة لحركة اليد على الفم، فحينما توضع اليد في الفم بين الأسنان تدل على الغيظ والضجر؛ لأن عض الأيدي تفريغ شحنات نفسية بسبب توتر عصبي أو احتقان نفسي، وحينما توضع اليد على الفم فإن الحركة تدل على إخفاء ضحك أو استهزاء، وقد توضع اليد على فم صاحبها ليسكت الطرف الآخر، وهو أمر مألوف في العلاقات الاجتماعية، وقد ذهب الألوسي إلى هذا المعنى بقوله: ((المراد أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك للرسول عليهم السلام أن يكفوا ويسكتوا عن كلامهم))^(٤٩) وتؤكد هذه الحزمة من الاحتمالات ما ذهبنا إليه وهو أن معنى الحركة الواحدة يختلف باختلاف السياق كما يختلف معنى الكلمة أو الجملة الواحدة في التنغيم اللغوي باختلاف التمجيزات الصوتية.

وما يعزز العلاقة بين التعبير الحركي (التنغيم الفسيولوجي) والتنغيم اللغوي في معرض هذه الآية ما ذهب إليه سيد قطب بقوله: ((ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل من يريد تمويه الصوت ليسمع عن بعد، بتحريك كفه أمام فمه وهو يرفع صوته ذهابا وإيابا

فسيولوجية موافقة لطبيعة المشاهد المؤثرة ثم نعبّر عما شاهدناه بفن قولي مناسب للحواس والتفاعل الفسيولوجي.

وتتفق دلالة التعبيرين الحركي والقولي، فكلا الدالّتين تصور الندم والتحسر على ما أصاب البستان. ولا يخفى أن الإنسان لا يكتفي- في الغالب- بالاستجابة الفسيولوجية بأشكالها المختلفة من حركات وإشارات واهتزازات وتقلصات عضلية، فهو يميل إلى تحويل الاستجابة الفسيولوجية الظاهرة والخفية إلى سلوك لغوي، وذلك ((أن وضع أجزاء الجسم يتخذ مباشرة قبل صدور أية وحدة كلام أو فكرة رئيسية، ويستمر هذا الوضع طوال مجرى هذه الوحدة مع تغيرات بسيطة في أوضاع الرأس والذراعين، والأيدي بحيث تكون مصاحبة للوحدات الأصغر للأفكار والكلام))^(٥٢).

وإذا كان البلاغيون قد اصطلاحوا على تسمية الاستجابة الفسيولوجية وهي تقليب الكفين كناية، فإن هذه التسمية تكني أو تخفي دلالة أو شعورا تواضع الناس عليه في مواقف محددة، وما دامت الكناية «قُلُوبُ كَفِيْهِ» تقيد الندم والتحسر فيمكن أن تتشكل لدينا جسارة في الاصطلاح فنزعم أن الكناية في هذا السياق هي نوع من التنغيم الفسيولوجي، والبرهان على هذا الزعم أمران، الأول: توافق دلالة الكناية «قُلُوبُ كَفِيْهِ» (التنغيم الفسيولوجي) مع دلالة التنغيم اللغوي للأسلوب الإنشائي في قوله تعالى: «يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّيْ أَحَدًا»، ففي كلتا الحالتين يتجلى الندم والتحسر. والثاني: لا تقتصر حركة الكفين على التقليب الذي يفيد الندم والتحسر، فكما اختلفت حركة الكفين اختلف المعنى، وهو أمر مألوف في حياتنا، فلو قبضت الكف الواحدة أو الكفان واهتزت قليلا لنجم عن هذه الحركة دلالات شتى، فقبض الكف أو الكفين مع اهتزاز يفيد القوة والتأييد والتشجيع أو الرضا والسعادة، وقد يدل قبض الكف على التهديد وغيرها من المعاني التي يحددها السياق، ولو انقبضت أو تشنجت أصابع الكف لأفادت الغضب أو الاحتقان. . . ولو

فيتموج الصوت ويسمع. يرسم السياق هذه الحركة التي تدل على جهرهم بالتكذيب والشك، وإفحاشهم في هذا الجهر، وإتيانهم بهذه الحركة الغليظة التي لا أدب فيها ولا ذوق^(٥٠) ولم تقتصر دلالة التنغيم الفسيولوجي فيما ذهب إليه الزمخشري على الدلالات النفسية بل تجاوزتها إلى دلالات سياقية؛ فقد عرض الزمخشري احتمالين لدلالة الضمير في ﴿أَهْمُ﴾، فقد يعود الضمير إلى أفواه الكافرين في حالة دلالة التعبير الحركي على الحالة النفسية أو السلوكية للكافرين (الغيظ والضجر والضحك والاستهزاء)، وقد يعود الضمير إلى أفواه الأنبياء، وذهب الشوكاني إلى توسيع دائرة الاحتمالات فقد أورد أن الكافرين وضعوا أيديهم في أفواه الرسل ردا لقولهم وقيل إن الكافرين أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليستكثروهم ويقطعوا كلامهم^(٥١) وهذا الاختلاف في تحديد الطرف المقصود بالتعبير الحركي الفسيولوجي يتفق مع دلالات التنغيم اللغوي في حالات معينة، فقد يقصد المتكلم التعبير عن ذاته وقد يقصد شخصا آخر في سياق تنغييمي محدد، وقد تحدثت حيرة وتردد في تحديد الطرف المقصود بالسياق التنغييمي إذا كان المتلقي المستمع جماعة.

وفي قوله تعالى: «وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا هِيَ خَلْقِيَّةٌ عَلَى شَهْرٍ يَّهَا يَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّيْ أَحَدًا» [الكهف: ٤٢].

يتضمن السياق نوعين من التعبير؛ تعبير حركي يدوي في قوله تعالى: «قُلُوبُ كَفِيْهِ» وتعبير قولي «يَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّيْ أَحَدًا»، والتعبير اليدوي يسبق التعبير القولي لا بدلالة السياق التركيبي فحسب بل بدلالة السياق النفسي كذلك؛ إذ إن مشهد دمار البستان أفضى إلى تفاعل فسيولوجي قبل الفعل القولي، فقد نقلت العين مشهد الدمار إلى الدماغ الذي أصدر أمرا فسيولوجيا تجسد بتقليب الكفين، فسلوك الحواس يظهر قبل السلوك اللغوي، إذ إننا نستقبل المشاهد البصرية والسمعية وغيرهما بحواسنا التي تتفاعل مع عمليات

ارتعشت أصابع الكف لأفادت التردد والخوف مثلاً. واستثناساً بما تقدم فإن حركة اليدين لغة معبرة، تختلف دلالتها باختلاف الحركة، وهذه الحال تماثل تماماً اختلاف دلالة التنغيم باختلاف الموجات الصوتية للكلمة أو الجملة الواحدة، فالتنغيم الفسيولوجي هو تنغيم حركي يقتضي متلقياً مشاهداً، والتنغيم اللغوي هو تنغيم صوتي يقتضي متلقياً مستمعاً، ويمكن أن نذهب إلى أبعد من هذا التقسيم فنزعم أن التنغيم الفسيولوجي هو تنغيم رمزي أو إشاري أو حركي، والتنغيم اللغوي هو تنغيم منطوق. وأزعم أن التعبير الحركي اليدوي في هذا السياق يحوي كثافة دلالية لا تتوافر في التعبير القولي إذ ((تغدو الحركة الجسدية مما يسد مسد كلمة أو كلام ... فيكون الوصف الحركي في سياقه الشريف قائماً على مبدأ الاعتياض))^(٥٣).

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّارَاتٍ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩].

اختلف المفسرون في دلالة الإشارة باليد أو بالإصبع في قوله تعالى ﴿فَأَشْوَاتُ إِلَيْهِ﴾، فذهب بعضهم أن الحركة الإشارية صدرت من مريم عليها السلام، ومعنى الإشارة: هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه ... وبناء على هذا التوجيه فإن المتلقين (قوم مريم) غضبوا من الإشارة لأنها سخرية منهم إذ قالوا: لسخريتها بنا أشد علينا من زناها^(٥٤)، ويتقاطع معنى الغضب والسخرية الناجم عن التعبير الحركي الإشاري مع معنى الإنكار والتعجب الذي يفيد التنغيم في الأسلوب الإنشائي ﴿قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ في الآية ذاتها. وأسبغ بعضهم دلالة التعظيم على الحركة الإشارية إذ ((إِنْ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا)) [الفرقان: ٢٧] اقتصارها على الإشارة للمبالغة في إظهار الآية العظيمة، وأن هذا المولود يفهم الإشارة ويقدر على العبارة^(٥٥)، ولا يخفى أن التعظيم والرفعة وعلو الشأن من المعاني التي يفيدها التعبير الإشاري في الموروث الثقافي الجسدي، ولهذا اصطلاح البلاغيون على صفة الشهرة أو علو الشأن في عبارة الكناية (يشار له بالبنان)، وقد تفيد الحركة

الإشارية وفق الموروث الثقافي إهانة أو سخرية وفق السياق أو الموقف، وهو ما يتقاطع مع السخرية التي شعر بها المتلقون في الآية.

إن اختلاف دلالة التعبير الإشاري في سياق هذه الآية من الغضب والسخرية تارة إلى التعظيم تارة أخرى يؤكد من جديد العلائق بين التنغيم اللغوي والتعبير الحركي (التنغيم الفسيولوجي) من حيث اختلاف دلالة الكلمة أو الجملة الواحدة باختلاف التمججات الصوتية أو اختلاف دلالة الحركة الواحدة وفق الدلالة التي يقصدها صاحبها أو الدلالة التي يفهمها المتلقي.

وذهب بعضهم إلى أن الإشارة صدرت من عيسى الذي كان يرضع، فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وانكأ على يساره وأشار بسبابته^(٥٦).

وفي قوله تعالى: ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْ لَاءُ تُدْبُونَهُمْ وَلَا يُدْبُونَهُمْ تَوَّانُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا آمَنَّا إِذَا دَخَلُوا أَعْضُدْ وَأَعْلَيْكُمْ الْأَنَامِلُ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا لِيُغَيِّظَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ذَاتُ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

تعبيران، لغوي و﴿إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا آمَنَّا﴾ وجسدي و﴿إِنْ دَخَلُوا أَعْضُدْ وَأَعْلَيْكُمْ الْأَنَامِلُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ ففي حالة اللقاء والمواجهة يكون الكذب والنفاق بادعاء الإيمان بوساطة التعبير الكلامي، وفي حالة الفراق والغياب يكون الكفر والغيب من المؤمنين بوساطة عض الأصابع وهو تعبير جسدي.

يلجأ كثير من الناس إلى عض أصابعهم في مواقف انفعالية مختلفة، نحو الغيظ كما نصت الآية، والندم والحسرة في قوله تعالى: ﴿يَعِزُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ والعربية تقصر عض الأنامل على صفة الندم في باب الكناية، والاقتصار على الندم غير دقيق، إذ إن لجوء الناس إلى عض الأصابع سلوك فسيولوجي حركي يصلح لمواقف مختلفة، ولهذا وردت (من) السببية في الآية (من الغيظ) لبيان سبب عضهم للأصابع.

للأنامل في المواقف الانفعالية، فمن المألوف أن نشاهد أناسا يضمنون قبضة اليد ضمنا خفيفا أو شديدا أو يتحسسون أصابعهم برفق حيناً وبشدة أحيانا أخرى، أو يباعدون بين الأصابع، أو أية حركة أخرى تظهر انقباضا وتوترا.

يفيد مختصون في الصحة العامة وبخاصة في الطب الصيني أن كفتي اليد تحوي أعصابا تتصل بالأعضاء الداخلية والخارجية للجسم، وتبين الصورة الآتية علاقة الأنامل بالأعضاء الأخرى

وعض الأنامل في الآية يخفي خطابا لغويا لا يستطيع المنافقون إظهاره، وما يدل على الخطاب اللغوي المضمّر قوله تعالى في نهاية الآية: **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**، ولا يخفى أن الخطاب اللغوي المضمّر ذو كثافة دلالية يعجز عنها أي تركيب لغوي يمكن أن ينطقه المنافقون للتعبير عن كفرهم وغيظهم.

ولكن لماذا يلجأ إلى عض الأنامل في كثير من المواقف الانفعالية؟ ولماذا يغيب التعبير اللغوي في المواقف ذاتها؟ يبدو أن الإجابة تتعلق بالوظيفة العصبية



بعض الأعضاء تتأثر أكثر من غيرها من مؤثرات مشبعة بالانفعالات.

ولا خلاف في أن التعبير اللغوي هو استجابة لانفعال أو تفاعل، إذ يعبر الإنسان عن انفعالاته وعن تفاعلاته الفكرية مع محيطه المادي والفكري، ولكنه يلجأ في مواقف معينة إلى التعبير الجسمي، وعض الأنامل واحد من تجلياته.

ومن الحركات الجسميّة الناجمة عن الانفعال والإثارة

إن التأمل بالأرقام التي تشير إلى أعضاء النطق يفضي إلى خارطة عصبية منتشرة على الأصابع والراحتين، ويعلل هذا الانتشار أو التوزيع لجوء بعض الناس إلى عض أطراف أناملهم أو عض جانب الإصبع أو جانب الراحة، أو عض جزء آخر يتصل بوساطة الأعصاب بعضو وقع عليه التوتر والانفعال، وكأن عض هذا الجزء أو ذاك هو محاولة لتفريغ شحنات التوتر والانفعال من العضو الجسمي المتأثر، ومن المعلوم أن

وضع الإصبع في الأذن، ويحدث هذا السلوك في حالتي الخوف والكراهية، ويمثل الحالة الأولى قوله تعالى: ﴿كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُدِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

ومن المألوف أن يضع الإنسان طرف إصبعه في أذنه حينما يتناهى إلى مسمعه صوت مدو أو حينما يتقرب سماع صوت مخيف مدمر، ولكن اللافت في الآية أن مصدر الصوت المدوي المخيف جاء من الصواعق، ولم يأت من الرعد. فهل يصدر الصوت المدوي المخيف من الرعد أم من الصواعق؟ وما الدافع إلى وضع الإصبع في الأذن، صوت الرعد المدوي أم الخوف من الصاعقة الحارقة؟ إن التأمل في البنية المعجمية لمادتي صَعَق ورعد من جهة وسياق الخوف في الآية من جهة أخرى يفضي إلى أن سبب الخوف الذي دفعهم إلى وضع أصابعهم في آذانهم ناجم عن اجتماع عناصر الرعد والبرق والصاعقة، إذ لا صاعقة بلا رعد، فَصَدَّعَ الْإِنْسَانَ صَدْعًا وَصَدْعًا فَهُوَ صَدْعٌ غُشِّيٌّ عَلَيْهِ وَذَهَبَ عَقْلُهُ مِنْ صَوْتٍ يَسْمَعُهُ، والصوت في الآية هو الرعد. والصاعقة: الصوت الشديد من الرعدة يسقط معها قُطْعَانٌ ويقال لِلْبَرْقِ إِذَا أَحْرَقَ إِنْسَانًا أَصَابَتْهُ صَاعِقَةٌ وَالصَّاعِقَةُ نَارٌ تَسْقُطُ مِنَ السَّمَاءِ فِي رَعْدٍ شَدِيدٍ وَالصَّاعِقَةُ النَّارُ الَّتِي يَرْسُلُهَا اللَّهُ مَعَ الرَّعْدِ الشَّدِيدِ، وقال ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ يعني أصوات الرعد^(٥٧).

يدل ما تقدم أن الخوف ناجم عن الصاعقة الحارقة، ولا ينجم عن الصوت بذاته، والصاعقة تحرق الجسم كله أو بعضه، ولا تحرق الأذن فقط، وبناء عليه لماذا قام الكافرون -في سياق الآية- بإغلاق آذانهم؟ نقودنا الإجابة عن هذا السؤال إلى بيان العلاقة بين الأذن وأعضاء الجسم، فقد ((أجرى الطبيب الفرنسي Alfred Tomatis تجارب على مدى خمسين عاماً حول حواس الإنسان وخرج بنتيجة وهي أن حاسة السمع هي أهم

حاسة عند الإنسان على الإطلاق!! فقد وجد أن الأذن تتحكم بكامل جسم الإنسان، وتنظم عملياته الحيوية، وتنظم توازن حركاته وتناسقها بإيقاع منتظم، وأن الأذن تقود النظام العصبي عند الإنسان! وخلال تجاربه وجد أن الأعصاب السمعية تتصل مع جميع عضلات الجسم، ولذلك فإن توازن الجسم ومرونته وحاسة البصر تتأثر جميعها بالأصوات. وتتصل الأذن الداخلية مع جميع أجزاء الجسم مثل القلب والرئتين والكبد والمعدة والأمعاء، ولذلك فإن الترددات الصوتية تؤثر على أجزاء الجسم بالكامل^(٥٨).

وبهذا التوضيح نفهم لجوء الكافرين إلى إغلاق آذانهم خوفاً من الصواعق، فهم يحاولون حماية أجسامهم بوساطة إغلاق آذانهم، وكأن منع الصوت من الوصول إلى الأذن يحمي الجسم!، وهو سلوك غريزي يلجأ إليه الناس في بعض المواقف وبخاصة في حالة الحرب وسماع صوت انفجار، فيسارع الناس إلى إغلاق آذانهم ظناً منهم أن منع وصول صوت الانفجار يحميهم من الموت.

ويتضمن سياق الآية وصفاً للمشقة التي يكابدها الكافرون، فهم يسبرون في جو ماطر، وهذا يدل على أن الماء والوحل يعيقان مشيهم، وأنهم بحاجة إلى مضاعفة جهدهم العضلي في المشي للحفاظ على توازن أجسامهم لئلا يسقطوا أرضاً، وتوازن الجسم مرتبط بالأذن كما سلف بيانه، ويدل سياق الآية أن الظلام يحيط بهم، فهم بحاجة إلى تركيز أنظارهم ليبصروا الطريق، وتزداد الرؤية سوءاً في حالة سماع الأصوات الصاخبة المخيفة بسبب علاقة أعصاب الأذن بشبكة العين، وهذا سبب آخر للجوء الكافرين في سياق الآية إلى إغلاق آذانهم بأصابعهم، فالصوت يؤدي إلى انقباض الأوعية الدموية الطرفية واضطراب في دقات القلب والتنفس وتغير في القدرات العضلية واضطرابات في الجهاز الهضمي وغيرها من التغيرات الفسيولوجية^(٥٩). ولعل من المفيد أن نتأمل الصورة الآتية التي تبين تأثير الصوت على الدماغ الذي يتحكم بأعضاء الجسم.



يروه كراهة النظر إليه من فرط كراهة الدعوة^(٦٣).

شبكة العلاقات الدلالية للصدر:

يتخذ تعبير سعة الصدر وضيقه شكلا بلاغيا كنايةا، فنقول: فلان واسع الصدر كناية عن صفة التسامح وتحمل الآخرين، وفلان ضيق الصدر كناية عن الغضب والتوتر والنفور من سلوك الآخرين، واختصاص الصدر بهذين السياقين مرتبط بمدى التفاعلات العصبية والفسيولوجية التي تطرأ على الرئتين والقلب في حالتَي التسامح والتوتر، نحو قوله تعالى: ﴿مَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ فَرِّضْ حَـدْرَهُ فَإِسْلَامٌ مِّنْ يَّرِدُ أَنْ يَضُرَّ لِيَجْعَلَ صَدْرَهُ يُقَدِّرُ جَا كَانَمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ جُنْسَ عَلَى الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

تحتوي الآية مشهدين من التعبير الجسدي؛ انشراح الصدر وهو تعبير جسدي معلن و يختزل حزمة من الصفات والدلالات نحو السكينة والطمأنينة ورقة القلب والهداية للإسلام، وهو تعبير دلالي مضمر. وضيق الصدر وحرجه وهو تعبير جسدي معلن و يعبر عن حزمة من الدلالات نحو المشقة وقسوة القلب، وهو تعبير دلالي مضمر، والمشهدان متقابلان من حيث انشراح الصدر وضيقه.

وتتجلى الدلالات المضمرة للتعبير الجسدي المعلن
بوساطة البنية المعجمية والتعليل العلمي، وسنقدم بيان

ورصد المفسرون استخدام الأصابع بدلا من أطراف الأصابع، فمن المعلوم أن طرف الإصبع (السبابة) هو الذي يوضع في الأذن، فذهب الزمخشري إلى أن استخدام الأصابع بدلا من الأتأمل أو أطراف الأصابع من باب الاتساع في اللغة، وعمل مجيء الاسم العام (الأصابع) بدلا من الاسم الخاص (السبابة)؛ لأن السبابة من السب فكان اجتتابها أولى بآداب القرآن الكريم، وقد كنى العرب عن السبابة بالمسبحة والمهلهلة^(١٠). وذهب الألوسي إلى أن ((المعهود إدخال السبابة، فكانهم من فرط دهشتهم يدخلون أي إصبع كانت ولا يسلكون المسلك المعهود))^(١١).

وحالة الكراهية تتمثل بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِذُوا بِاللَّهِ وَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَهُمْ عَشْرُ حَسَنَاتٍ كُلَّمَا دَعَوْا لَهُمْ لِيُغْفَرَ لَهُمْ أَصَابَهُمُ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ [نوح: ٧].

لا تقتصر دلالة إغلاق الأذن بالإصبع على كراهية الاستماع للكلام، فهي تدل كذلك على عجز السامع عن الإتيان بالأدلة والبراهين للرد على المتكلم، فكأن الكلام يعري عجزهم ويكشف ضعفهم فيلجؤون إلى سد آذانهم، كما يدل إغلاق الأذن على كراهية المتكلم (نوح عليه السلام)، ويعزز هذه الدلالة التعبير الحركي الثاني في الآية **(تَعْشُواْ ثِيَابَهُمْ)** لئلا يبصروه كراهية النظر إلى وجهه من ينصحهم في دين الله ^(٦٢)، أو لئلا

يُخرج الألفاظ عن صورتها النطقية والسمعية المألوفة مما يؤدي إلى خروجها عن الدلالة المألوفة لتصبح سخرية واستهزاء، ولو برز اللسان خارج الفم ساكنا أو متحركا فإن دلالة الازدراء والسخرية لا تخفى. حركة الشفتين من حيث انقباضهما وبروزهما الأسنان بالشفة السفلى يعبر عن الازدراء والسخرية وبخاصة إذا رافق أوضاع الشفتين كلام خفي.

دالتهما فقد تردد المفسرون في تحديد فرق دلالي بين الهمز واللمز فقد قيل إن الهمزة الطعان في الناس، واللمز في الخلف، وقيل: بالعين والشدق واليد واللمز في الخلف، وقيل: باللمزة هو الذي يكسر عينه على جلسه ويشير بيده برأسه وبحاجبه والهمزة هو الذي يؤدي جلساءه بسوء اللفظ^(١١).

الهوامش:

(١) محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب (الخصائص، تحقيق:

دار الكتب العلمية، ج ١، ص ١٠٠).

(٢) محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب (البيان بلا لسان - دراسة في لغة الجسد -

دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٩٠)، ص ١٠٠).

(٣) محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب (البيان والتبيين، تحقيق:

دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٩٠)، ص ١٠٠).

بيروت، ج ١، ص ١٠٠).

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(٧) فخر الدين محمد الرازي (البيان والتبيين، تحقيق:

دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٩٠)، ص ١٠٠).

والتوزيع، القاهرة، (١٩٩٠)، ص ١٠٠).

(٨) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(٩) جمعة سيد يوسف، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي

ص ١٠٠، ص ١٠٠.

(١٠) محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب (لغة الحركات: سمير

شيخاني، (١٩٩٠)، دار الجليل، بيروت، ص ١٠٠).

(١١) وليم لامبرت، و(١٩٩٠)، علم النفس

الاجتماعي: ص ١٠٠، ص ١٠٠، ص ١٠٠.

ص ١٠٠، ص ١٠٠، ص ١٠٠، ص ١٠٠، ص ١٠٠.

(١٢) محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب (الفراصة، ص ١٠٠).

(١٣) تشارلز داروين، التعبير عن الانفعالات في

الإنسان والحيوانات، مجدي محمود المليجي.

ص ١٠٠، ص ١٠٠، ص ١٠٠، ص ١٠٠، ص ١٠٠.

ص ١٠٠.

(١٤) جورج زيدان (علم الفراسة الحديث

دار الجليل، بيروت، ص ١٠٠).

(١٥) جمعة سيد يوسف، سيكولوجية اللغة والمرض

العقلي، ص ١٠٠.

(١٦) داروين: التعبير عن الانفعالات، ص ١٠٠.

(١٧) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(١٨) لوشكي مارفين، التمثيل الصامت - فهم وأداء

الصمت المعبر -، ص ١٠٠، ص ١٠٠، ص ١٠٠.

ص ١٠٠، ص ١٠٠، ص ١٠٠، ص ١٠٠، ص ١٠٠.

(١٩) محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب (العقد

الفريد. أحمد أمين وإبراهيم الأبياري، دار

الأندلس، بيروت، ص ١٠٠، ص ١٠٠).

(٢٠) محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب (العين من النظرة إلى الدمعة في الشعر

العربي" مجلة الموقف الأدبي، ص ١٠٠، ص ١٠٠.

ص ١٠٠، ص ١٠٠، ص ١٠٠، ص ١٠٠.

(٢١) محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب (الحمامة في الألفة والآلاف

ص ١٠٠، ص ١٠٠، ص ١٠٠، ص ١٠٠، ص ١٠٠).

ص ١٠٠، ص ١٠٠.

(٢٢) محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب (فقه اللغة

وسر العربية، تحقيق: مجدي فتحي السيد.

التوفيقية، القاهرة، ب. ص ١٠٠، ص ١٠٠).

(٢٣) محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب (الكشاف عن

حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، دار المعرفة، بيروت،

(١٩٩٠)، ص ١٠٠، ص ١٠٠).

(٢٤) محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب (روح المعاني في

تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: محمد

